المحاضرة الخامسة: قضايا أساسية في علم نفس النمو

قضايا أساسية في علم نفس النمو

إن المتتبع لهذه الأطر العامة المرجعية الثلاثة: العضوية و الآلية و السياق وما تركته من آثار في علم نفس النمو سيعثر على خمس قضايا نمائية حددها ريس و أفيرتن Reese & overten بالثنائيات التالية:

القضية الأولى: الكلية في مقابل الجزئية :هذه الثنائية تؤشر إلى طريقتين في رؤيتنا للفرد.

الشق الأول: منها يؤشر إلى مقولة أن الكل أكبر من مجموع أجزائه. و عليه فإن دارس نمو الفرد أن يتفحص أجزاء نظامه في تفاعلها مع بعضها البعض، هذه التفاعلات تكتسب معانيها من خلال تفحص النظام في كليته ، مثال ذلك هب أن باحثا يريد العمليات البصرية فإنه بحاجة إلى التعرف على وظيفة النظام البصري ككل لا على القرنية وحدها أو الشبكية وحدها. هذا الشق مرتبط بالوجهة الأولى «العضوية».

أما الشق الثاني : فإنه يؤشر إلى مقولة أن الكل مساو لمجموع أجزائه. فيكفي أن نفهم أجزاء النظام واحدا واحدا لنفهم النظام كله. مثال ذلك: يكفي أن تجزئ سلوكا ما إلى عناصره الأولية و تفهم كل عنصر على حدة لتفهم السلوك الكلي. هذا الشق مرتبط بالوجهة الثانية(الآلية).

القضية الثانية: البناء- الوظيفة في مقابل السابق- اللاحق

الشق الأول:مفهوم مستفاد من البيولوجيا و مفاده أن الكائن الحي يمتلك بناء محددا، لكل جزء منه وظيفة و هو في علاقة «بالكل». له بناء موروث (تحدده الجينات)، كل جهاز من هذا البناء(المعدة،الرئتان،الطحال ...الخ) له وظيفة محددة بدونها لا يمكن لهذا الكائن نشطة فاعلة و التغير فيها ينبع من داخلها و موجة نحو غاية معينة، إن ما يطرحه هذا

الشق يتناغم مع العضوية فالتغير المعرفي مثلا ناتج عن تغير في الأبنية المعرفية و عن تغير النظام النيورولوجي في نفس الوقت.

الشق الثاني: السابق – اللاحق، يؤشر إلى أن الكائن الحي عضوية نشطة يمكن دراسة سلوكها من خلال معادلة مثير استجابة فكل تغير يحدث هو استجابة لقوى خارجية، فلا حاجة لافتراض وجود قوى داخلية، إضافة إلى ذلك فإنه لا يوجد نقطة نهاية أو هدف يتجه نحوه النمو. فالتغير لا هدف له ولا غاية. إن أفكار هذا الشق تتناغم مع وجهة الآلية.

القضية الثالثة: التغير في البناء في مقابل التغير في السلوك

تعتبر هذه الثنائية امتدادا مباشرا للثنائية الواردة في القضية الثانية، هذا من جهة ومن أخرى فإن هذه الثنائية تتوجه للإجابة عن الأسئلة التالية: ما هي التغيرات التي تمت ؟ و أين ؟ وما هو اتجاه التغيرات؟ فالتغير في البناء تغير داخل الفرد. فالعضوية في مثل هذه الحالة عضوية نشطة، التغير فيها يتوجه نحو تحقيق هدف معين، بتعبير آخر. إن التغير الحاصل تغير نوعي بنيوي غائي.

على العكس من ذلك التغير في السلوك الذي يرى للوهلة الأولى على أنه مجرد رد فعل أولي للمثيرات الواقعة على الفرد. هذا التغير أيضا نوعي من حيث الاختلاف في الدرجة بين ما قبل التغير وما بعده. و يعتبر هذا الشق متعدد الإتجاهات في نفس الوقت.

الشق الأول: من هذه الثنائية يتناغم مع الوجهة العضوية في حين أن الشق الثاني ينسجم مع الوجهة الآلية.

القضية الرابعة: الإنقطاع في مقابل الإستمرارية

الشق الأول : من هذه الثنائية مرتبط بالتغيرات النوعية، و من حيث كذلك فهو غير قابل للاختزال إلى أشكال أولية قبلية. مثال ذلك: إن ما يعرفه الطفل في المرحلة الحسية الحركية – وفقا لما ذهب إليه بياجيه– مختلف جدا عما سيعرفه عندما يصير في المرحلة

العيانية هذا الفرق بين المرحلتين هو فرق نوعي لسنا بحاجة إلى رد كل منهما إلى أشكال أولية بسيطة حتى نفهم هذا الفرق.

يتفق هذا الشق مع وجهة «العضوية» من جهة و مع وجهة نظر«المرحلية» في نمو الكائن الحي من جهة أخرى.

الشق الثاني : من هذه الثنائية يؤشر إلى استمرارية التغير. فكل السلوكات الجديدة نتاج لمقدمات حدثت من قبل. ولكي نفهم هذه السلوكات الجديدة لابد من ردها إلى مكوناتها الأولية و فحص كيف تغيرت هذه المكونات تغيرا كميا.

إن الإستمرارية في النمو مرتبطة بوجهة«الآلية»، و إن التغير يمكن أن يكون نوعيا أو كميا، و متعدد الإتجاهات أو ليس له أي اتجاه تبعا لمفهومنا للتغير.

القضية الخامسة : المرحلية في مقابل اللامرحلية

الشق الأول:إن مفهوم المرحلية بني على فكرة أن التغير منقطع. أي أن لكل مرحلة نمائية تغيرات تتم فيها منقطعة عن تلك التي ستتم في مرحلة نمائية تالية. و عليه فهناك مستويات متنوعة من التنظيم تسود العضوية في كل مرحلة، وأن هذه المستويات أو المراحل تتوجه نحو هدف معين أو غاية معينة، و بالتالي فإن فكرة المرحلية مقبولة لدى وجهة العضوية.

الشق الثاني: من هذه الثنائية يؤشر إلى النظرية التي تقول بأن التغير متصل و بالتالي لا تظهر المرحلية إبان مسار نمو الفرد و من الأمثلة على هذه النظرية كل من :الإيثولوجية، والإيكولوجية و دورة الحياة.